دراسات الأدب المعاصر، السنة الرابعة، شتاء ۱۳۹۱، العدد السادس عشر، صص ۵۱-۶۶

تعرُّف الجاحظ خلال نثره؛ البيان و التبيين

فيروز حريرچی *
سيّد ابراهيم ديباجی **
سيّد حسن ميربهبهانی ***

الملخص

هو *ابوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ* من الادباء الشهير فی القرن الثالث للهجرة. انّه حُظِی بذكاء وافر و مثابرةٍ فی العمل، و استمدَّ ببيئة مولده الجغرافيـة أی البصـرة الّتـی كانـت ميناءَ تجاريةً تَتَجوّل فيه الاجناسُ المختلفة و مذاهبُ شتّی و الاَلسِنَةُ المتنوعـة، و أيضـا وقوعُه فی موقع تاريخی خاص أی عصر ازدهار الحكومة العباسية و رفعتها خاصـةً عصـر *مأمون* و هو عصر نشأة الثقافة الاسلاميةِ. سنحت *للجاحظ* فرصةُ خلـق المعـالم الادبيـةِ على الاخص كتاب «البيان و التبيين». كتاب «البيان و التبيين» ذاتُ نثر خالص، واقعی، طبيعی، بعيد عن التكلّف، ذات بهجة، ساخر، صريح، شفاف، مشـحون مـن الاسـتطراد و الاستشهاد بالشعر الجاهلی و الاموی، و معالم القصّاصين و الشواهدالقرآنية عربية الصبغة.

الكلمات الدليلية: الجاحظ، النثر، الاسلوب، «البيان و التبيين»، العصـر الـذهبی، الأدب العباسی.

---

* عضو هيئة التدريس بجامعة آزاد الاسلامية، فرع علوم و تحقيقات بطهران.
** عضو هيئة التدريس بجامعة آزاد الاسلامية، فرع علوم و تحقيقات بطهران.
*** طالب الدكتوراه فی جامعة آزاد الاسلامية، فرع علوم و تحقيقات بطهران.
Mirbehbahani2125@Yahoo.Com
الكاتب المسؤول: سيّد حسن ميربهبهانی

تاريخ الوصول: ۹۱/۳/۱۹ تاريخ القبول: ۹۱/۸/۱۵

المقدمة

هو *ابوعثمان عمرو بن بحر بن محبوب* الملقب *بالجاحظ* من الادباء و الكُتّاب الشهير في القرن الثالث، مولدُه بصرة و اختُلفَ في سنةِ ميلاده قيل وُلد بالبصرة سنة ۱۶۰ه/۷۷۶م(جبر،۱۹۵۹: ۱۷)، و قال *ياقوت الحموی*:«إنّ *الجاحظ* قال عن نفسه إنّه اَسَنُّ مِن *أبی نواس* بسنةٍ يعنی أنّه ولد سنةَ ۱۵۰ه/۷۷۶م»(الحموی،۱۹۹۹: ۷۴). و نرجّح سنة ولادته ما بين مائةٍ و خمس و خمسين للهجرة و مائة و ستين.

إنَّه عمر طويلاً و عاصَرَ كثيراً من الخلفاء العباسی من *مهدی* إلی *مهتدی*. ولد زمنَ *مهدی* العباسی و في زمن *هادی* كان طفلاً صغيراً، و كان شابّاً في عصر *هارون* و شاهدَ الصراع بين *امين* و *مأمون* و حين نَمَت و اقتَدَرت المعتزلة في عصر *مأمون*، بلغ *الجاحظ* الی كمال السنِّ و الی مرحلة ادراک عقليٍّ و علميٍّ و عكف إلی الفلسفة و العلوم و كان من هواة المعتزلة.

في هذه الفترة و هی الشِّق الثانی مِن حياة الجاحظ، تبدّلَت حياةُ *ابی عثمان* من الحرمانِ و الفاقة إلی الغنی والثراء. و في خلافة *مأمون*، بلغَت الحياة الاجتماعية أقصی درجة من الرخاء و الحضارة و كان *الجاحظ* علی صلة فكرية *بالمأمون*، الذی كان يُكرمُه علی عبقريته و اعتزاله و *الجاحظ* بدوره كان يَجلُّ الخليفةَ لسعَةِ ثقافته و مُيوله الاعتزاليةِ.

و ايضاً شاهد *الجاحظ* قدرةَ الاتراک زمن تولية *المعتصم* عرش الخلافة العباسية و أدرک حكومةَ *واثق* و بعدَه *المتوكّل* الذی أمر بترک النظر و الجَدل، و هذا عَصر هزيمة المعتزلةِ كما أدرک خلافةَ *المنتصر* و *المستعين* و *المعتز* و كانَ *الجاحظ* في هذه الفتراتِ، كثير المال، عظيم النفوذ، في نعمة و بحبوبة.

عندما أخَذت الايامُ تذوِّب من قوّته كانت سن *الجاحظ* متقدمةً، فَاَثقلَه المرضُ و ألزَمَه الفراش، «يروی عن *ابی العباس المبرّد* تلميذه و صديقه انّه قالَ: دخلتُ علی *الجاحظِ* في آخر أيامه، فقلتُ له، كيفَ أنتَ؟ قال: كيف يكونُ مِن نصفه مفلوج لَو حَزّ بالمناشير ما شعر به و نصفه الآخر منقرس، لو طار الذباب بِقُربه لَاَلَمَه، وَ اَشَدُّ مِن ذلکَ ستّ و تسعونَ سنةً اَنا فيها ثُمَّ أنشَدَ:

أترجُـو اَن تكـونَ و اَنـتَ شـيخٌ كَما قد كُنـتَ اَيّـامَ الشـبابِ
لقد كذَّبتکَ نفسُک لَيسَ ثَـوبٌ دَريسٌ كَالجديد مِن الثيـابِ

(الحموی،۱۹۹۹: ۱۱۳)

حنّا الفاخوری يقول فی ترجمة *الجاحظ*: «ولدَ *الجاحظ* فـی البصـرةِ و لمّـا شـبَّ أخـذَ العلمَ عن المسجديين، ثمَّ عن خطباءالعرب بِالمِربد ثمّ عن رجال العلم فی بغداد مِن مثـل *الاصمعی* و *النّظام*. ثمّ إنصرفَ الی الكتابةِ و التأليف فطـارت لـه شـهرةٌ واسـعةٌ فَاسـتقدمَه *المأمونُ* و أقامَه علی ديوان رسائله فلم يلبث فيه سِوی ثلاثة أيامٍ، و اتّصل *الجاحظ* بـابـن *الزيّات* و كتب له و أهداه كتاب «الحيوان» ثمّ اِتَّصـل بـابـن *ابـی دُؤاد*، و قـدّم لـه كتـاب «البيان و التبيين» ثمّ إتّصل *بالفتح بن خاقان* و كانت له معه مودّةٌ ثمّ ماتَ *الجاحظ* و قد فلج و اُصيب بداء النقرس»(الفاخوری،۱۹۸۷: ۵۵۶).

عصر الجاحظ

كان *الجاحظ* فی العصر الذهبی للاُمّة العربية؛ عصر *هارون* و *المأمون* و العلـوم و الآداب و الفنون و العقول فی نشاط. عصره عصر العلم و الثقافة و الحرّيـة الفكريـة و المـال تلمـع وجوهه فی عيون أهل الفضل.

عصر *الجاحظ*، عصرالحرِية الدينية اَيضاً التی سمِحَ بها *المأمونُ*، فكان يُجادل الناس فی امور الدينِ و يسمحُ لهم بالدفاع عن معتقداتهم، و امتدّت هذه الحرّيةُ إلـی تنـاول مسـائلَ خطيرةٍ من الدينِ و التفسير حتی كانَ المجوس انفسهم يعارِضونَ علمـاء المسـلمينَ دونَ حرج. و كان الاعتزال الذی قام فی عصر *الجاحظ* وليد حرّية الفكر هذه. و قد نال *الجـاحظ* من هذه الحرّية نصيباً فكان يُعلَّق علی آراء المفسرين بجرأةٍ و كـان معتزليّـاً فـی مذهبـه، يُحكّمُ العقلَ فی مسائل الايمان و ينتقد بعض التفاسير ممّا يعارض العقل و المنطق فليس من المستغرب أن يُتَّهم فی دينه. و عصره عصر انقلاب فكری فی شؤون الحيـاةِ و الفكـر و لذلک لم يغفل *الجاحظ* عن شیءٍ ممّا كان يجـری فـی أيّامـه، تـراه يلمِّـح إلـی النقـل و الاقتباس عن الامم الاخری و يبيّنُ أثرَهما فی الثقافةِ.

تعلّم الجاحظ

كانت البصرة فی ذلک الوقت کعبة العلماء و حلبة الفقهاء و منتدی الادباء و حاضرة البرّ و البحر. و العلوم و المعارف أقوی اسباب الاتصال بالخلفاء و الوزراء و الولاة فوجد بیئةً صالحةً للعلم و مجالاً واسعاً للدرس، و حافزاً قویاً للتحصیل فاَکَّبَ *الجاحظ* علی العلم و اولعَ بالعلمِ منذُ صِغَره؛ فلم یترک فنّاً من الفنون و لا علماً مِن العلوم المعروفة فی عهده إلا ضربَ فیه بِسَهمٍ و أخذ منه بأکبرَ نصیبٍ. و رقیُّهُ العلمیُّ یرجع إلی أسباب و هی:

۱.دکاکین الورّاقین: فکانَ یکتری دکاکین الورّاقین(اصحاب المکتبات) فی اللیل، لیطالعَ ما فیها مِن کتبٍ و یبیتُ فیها للنظر و یعمل فی النهار لِتحصیل قوت یومه.

۲.مسجد: أُتیحَ *للجاحظ* بِفضل ذکائه المتوقد و حافظته القویة، و بسبب نشأته فی البصرة أن یَتردد إلی حلقات المساجد، و أقبلَ إلیهم یجالسهم و یأخذُ عنهم الکثیرَ، یجتمع فی مسجد البصرة طائفةٌ حسنةٌ مِن العلماءِ و أرباب الأدب و النحو و اللغة عُرفوا بِ"المسجدیین".

۳.مِربَد: و کثیراً ما کانَ یذهبُ الی مربَد البصرةِ و هو اِذ ذاکَ اَشبَهَ بِسوق عُکاظَ فی الجاهلیةِ، یَلتقی فیه الشعراءُ و الخُطباءُ و الرواةُ و النّسابون و یعرِضُون ثمراتِ قرائحهم و نتاجَ أفکارهم فَیأخذُ الفصاحةَ عنهم شفاهاً و غزرت لذلک ألفاظه و قویت لغتُه.

۴.المجالس الادبیة: کثیراً مِن الأشرافِ و العُظماء المحبّین للعلم و الادب کان یعقدونَ المجالسَ الادبیةَ، حول الشعرِ و اللغةِ و الکلام و الصرفِ و النحو و استفادَ *الجاحظ* مِن تلک البیئات.

۵.مخالطة الناس: و کان إلی جانب ذلک کثیرُ الاختلاط بالناس یُعاشِرُ صغارهم و کبارهم و فقراءَهم و اغنیاءَهم، و کُلَّ طبقةٍ منهم و افادَهُ ذلک خبرةً واسعةً و تجاربَ نادرةً.

و قد خالط کثیراً مِن مترجمی الفرسَ و السریانَ و قَرَأَ جمیع ما تُرجمَ فی أزمان *المنصور* و *الرشید* و البرامکةِ و *المأمون*، فأحاطَ بِجمیع الثقافات المختلفة من عربیّةٍ و فارسیّةٍ و یونانیّةٍ و هندیّةٍ. فکانَ لذلک أثر واضحٌ فی ثقافته و اِنتاجه فَقد مزجَ الفلسفة بالأدب و الفکاهة.

و كانَت إقامته فی البصرة إقامة المترفين لِعلمه و أدبه و ذكائه و فطنته، ممّا حبّبه إلی الولاة و الأعيان و رؤساء الموالی. فَأغدقُوا عليه العطايا و المِنَح بسبب ما كان يصنِّفُه لهم مِن الرسائل و الكُتب التی كان يؤيّد فيها مذاهبهم و ينقُضُ آراءَ مخالفيهم، فَيُرضيهم بذلک مِن ناحيةٍ و يَدلُّ علی فَضله و أدبه و قدرته مِن ناحيةٍ أُخری.

يَعتَبِرُ *حنّاالفاخوری* الشخصياتِ الثلاثةَ *للجاحظ*:

۱.شخصيته الأخلاقية:كان *الجاحظ* مطبوعاً علی الظُرَف و الفُكاهةِ، ميّالاً الی التفاؤل و كانَ واقعيّاًحريصاً علی الوقتِ، حلوُ الحديثِ، سريع الجوابِ و النكتةِ، ساخراً، يحبُّ اللّهوَ.

۲.شخصيته الدينية:كان الجاحظ ديّناً و لكنّه لَم يكن مِن المتشدّدين فی أمر الدين و كانَ معتزليّاً جاحظيّاً.

۳.شخصيته الادبية: يُريد *الجاحظ* الحُرّيةَ فی الأدب كما يُريدُها فی اللغةِ. يُريدُ المناسبةَ بين الالفاظ و المعانی و مراعاةِ مقتضی الحالِ كما يُريدُ التنقيحَ و التهذيبَ فی الكتابةِ مِن غير مبالغةٍ و وضوح الدّلالةِ و الايجازِ»(الفاخوری،۱۹۸۷: ۵۵۶).

علمه و أدبه

اِنَّ *الجاحظ* قد أحاط بجميع أنواع الثقافة المعروفة فی زمنه، من إسلاميةٍ و فارسيةٍ و يونانيةٍ و هنديةٍ. و لذلک اتّفق الرواةُ علی اَنَّهُ لَم يكن فی عهده رجلٌ اَوسع معرفةً منه و لاَ امتَع أدبا و لا اَبلغ عبارةً، و لا اظرَف فكاهةً و لا اكثر تصنيفاً و لا اَوضَح حجةً و برهاناً.

هذا قولُ *حنّا الفاخوری* فی مكانته الأدبية: «أخذ اللغةَ عن *الاصمعی* و *ابیزيد الانصاری* و *ابی عُبيدة معمّر بن مثنّی* و أخذ النحوَ عن *الأخفش*، و الحكمةَ عن *صالح بن جناح اللّخمی*، و علم الكلام عن *النّظام ابراهيم بن سَيّار البلخی*، و تَردّد الی مجلس الادباء *كابن وهب* و *ابن الزّيات* فوَجَد عندهم علی ماقال هو نفسهُ، ما لم يَجِده عند مشايخه الذينَ اَخَذَ عنهم الشعرَ و الأدبَ و بهم عرفَ ماهيّة الشعر و قامَ بِحقّ الأدب و الكتابةِ. و يقال اِنّه كانَ يعرف الفارسيّةَ و كانَ مُولعاً بالكتابُ يكثِرُ مِن مطالعة المؤلفات الفكرية و الفلسفية»(الفاخوری، ۱۹۸۷: ۵۶۰).

لَقَت آثارُ *الجاحظ* رواجاً عظيماً لِعدّةِ أسباب و هی سِعة علمه، کثـرة مؤلفاتـه، اعتزالـه، جرأتُه فی النهوض علی التقالید، نظرُهُ النّقدیّ، اتّساع مواضیعه، تنوع موضوعاته، قوّته فـی تصویر اخلاق عصره، اسلوبه السُخری، مَزجُه الجِدّ بِـالهزل، و تبسـیط المسـائل العلمیـة و الفلسفیة فی اسلوبٍ واضحٍ یَصطَبغُ بالصبغةِ العربیةِ.

احمدحسن الزیّات مِن مفکّری العرب المعاصر یعدُّ *الجاحظ* "نابغـةَ العـربِ" و "جـامع الجدّ و الهَزل" وصاحبَ تألیفاتٍ وفیرة یَقولُ بشأنه: «لیس فـی مقـدور هـذا القلـم العـاجز الموجز أن یصفَ لِلقارئ ما لِنابغة العربِ و *فُلتیر* الشرقِ من الأثر فی الأدب؛ و بِحَسـبنا أن نَقولَ أنَّهُ تمیّزَ مِن اَنداده بِغَزارة العلم و قوّة الحجةِ و استقصـاء البحـث و شـدّة العارضـة و بلاغة القول، و أنّهُ تَبَحّرَ فی علم الکلامِ و خلطـه بفلسـفة یونـان و انفـرد دون المتکلّمـینَ بمذهبٍ فی التوحید شایَعَه علیه کثیرٌ منهم فَسمّوا بالجاحظیّةِ و شارَک فی سائر العلـومِ و کتبَ فیها کتابةَ محقّقٍ ضلیعٍ و هو اوّل عالمٍ عربیٍّ جمع بینَ الجِـدّ و الهَـزلِ و توسّـعَ فـی المحاضـرات و أکثـرَ مـن التصـنیفِ و کتـبَ فـی الحَیَـوانِ و النبـاتِ و الاخـلاق و الاجتماع»(الزیات:۲۵۸).

و قال *عبدالسلام هارون* مِن الباحثین حول *الجاحظ*: «*الجاحظ* امامٌ فَذٌّ مِن أئمة البیانِ فی العربیةِ و لیس من الإسرافِ و المغالاةِ أن نَعُدَّهُ زعیمَ البیانِ العربـیِّ نطلـق القـولَ فـی ذلک اطلاقاً»(الجاحظ، ۱۹۶۹: ۳).

هکذا أودعَ *الجاحظُ* خزائِنَ الأدب العربی مجموعةً من المؤلفـات البـارزة و قـد تنوّعـت بین العلم و الأدب و الاجتماع. و لعلّ ذلک یعودُ اِلی عواملَ اَهَمّهُما طـولُ عمـره، و صـبره الدائب علی تحصیل العلوم، و نبوغه و بیئتهُ الّتی وفـرت لـه العلـمَ و المعلمـینَ. و لـذلک یعتبرُ احدُ نوابغ الدنیا الذین لا یجود الدهرِ بمثلهم اِلّا بعدَ اَجیالٍ و قرونٍ.

اسلوب الجاحظ

اسلوب *الجاحظ* مرآةٌ صافيةٌ لِطَبعه و رسمٌ وَضّاحٌ لِألوان ثقافته سَجَّلَ فيه خطراتِ عقله. *الجاحظ* معروف فی اسلوبه بخصائصَ لم یسبق إلیها و بِأُخری سَبَقَه غیرُه إلیها فهو فی الاولی مبتدعٌ مخترع و فی الثانیة مقلّدٌ مُتَّبِعٌ.

امّاالخصائص الاولی الّتی له فیها فضلُ السَبَق و فخرُ الابتداع فهِی:

الخاصة الاولی: مزجهُ الحقیقةَ الجافةَ بالفکاهة الحُلوةِ و الجِدَّ المُسئمَ بالضَّحکِ المؤنسِ و البرهان المقنع بالتّهکّم الموجع. و مِن اسباب جمع *الجاحظ* بینَ الجدِّ و الهزلِ فی أُسلوبه حرصُه علی اَن یفهم الناسُ عنه و احتفاله برضی العامة علیه و إقبالهم علی قراءة ما یکتُبُ.

الخاصة الثانیة: تأثره بأسالیب الخطابة و المنطق و مظاهر ذلک التأثر بادیةٌ فی وجوهٍ عدّةٍ منها:

۱.التکرار: یری *الجاحظ* التکرار من خصائص الخطابةِ حیث یذکر فی کتابه«البیان و التبیین»: «و ما سمعنا بأَحَدٍ من الخطباء کانَ یَری اِعادة بعض الالفاظ و تردادَ المعانی عیّاً»»(ج۱: ۵۸)

۲.المذهب الکلامی: هو أن تورِدَ حجّةً قاطعةً عند المخاطب بعد تسلیم المقدماتِ کما جاء فی «البیان و التبیین»(ج۱: ۸۱).

الخاصة الثالثة: قصر الفقرات و اتزان العبارات و الموسیقی و الازدواج، و إنما یَلذّ من نثر *الجاحظ* العقل و الشعور و الاذنُ.

الخاصة الرابعة: الإفتنان فی الأسلوب: مِن خبر إلی استفهام، و من استفهام إلی تعجّب، و من تعجّب إلی أمر. و هذه مِن آثار الاسلوب القرآنی کقوله تعالی:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(فصلت/۴۰)

خبر، فاستفهام، فامر، فخبر و أورد *الجاحظ* هذه الخاصة فی رسالة «الحاسد و المحسود» فی قصة «اخوةِ یوسفَ».

الخاصة الخامسة:الإستطراد و ذلک نتیجة اطلاعه الواسع بعلوم متنوعةٍ و ثقافات متعددةٍ.

الخاصة السادسة:استقصاءُهُ فی البحث فهو یتتبّعُ المعنی و یقلبه علی وجوهه المختلفة و یَظَلُّ یُولِدُهُ حتّی لا یترک فیه قولاً لقائلٍ.

أمّا الخصائص التی یشرکه فیها غَیرُه فَهِیَ السهولة، و الإعتراض بمثل قوله"أبقاکَ اللهُ"، "اعزّک الله"، ثُمَّ الاِسهاب، ثُمَّ السجع.

فاسلوب *الجاحظَ* مِن نوع أدب الفکر لا أدب العواطف، قوامه الترتیب المنطقی و التنسیق العقلی و التنویع الفکری. یَضَعُ *الجاحظ* الألفاظَ فی موضعها و یُسبِغُ علی الجملة روعةَ البلاغةِ و حسن النظم و کان هدفُه الوضوحَ بعیداً عن الغرابةِ و التعقید. شعارُه: "لِکُلّ مقام مقالٌ".

فلیس هو بالرجل الخیالیّ اِنّه رجل الفکر و المنطقِ. تعابیر *الجاحظ* تنفذُ الی القلوبِ.«فقال *ثابت بن قرّة*(۲۲۱-۲۸۱هـ): ما أحسَدَ هذه الاُمّة العربیّة اِلّا علی ثلاثةِ اَنفُسٍ فانّه:

عَقِمَ النساءُ فلا یَلِدنَ شبیهَهُ اِنّ النّساءَ بمثله عُقمٌ

فقیلَ: اَحصِ لَنا هولاء الثلاثةِ قال: اَوّلُهم *عمر بن الخطّاب* و ثانیهم *الحسن البصری* و ثالثهم *ابوعثمان الجاحظ*»(الحموی،۱۹۹۹: ۱۶).

مؤلّفات الجاحظ

لیس بینَ کُتّاب العربیّة مَن أنتج اِنتاجَ *الجاحظِ* فی التصنیف فما وضع کتاباً اِلّا و أقبلَ الناسُ علی قراءته و دراسته و لا یلبث أن ینشُرَ فی الأقطار العربیّة الإسلامیّةِ، ثُمَّ یصبح حدیثَ الأندیة العلمیة و المحافل الادبیةِ و موضوع درس فی حلقات الدروس بالمساجدِ و المدارسِ و موضوعَ إعجابٍ *بالجاحظِ* و أکبار لِعلمه و أدبه و لقد ساعَدَه علی هذا الإنتاج معارفُهُ الواسعةِ و ذهنه الصافی و قریحته الفیاضة.

جاءَ فی مقدمة کتاب«المحاسن و الأضداد»: «ترک *الجاحظ* زهاءَ ثلاثمائةٍ و سِتّینَ مصنفاً فی الأدب و الإجتماع و الکلام و الفلسفة و الدین و الشعر و البلاغةِ و الأخلاقِ و غیرها مِن صنوفِ العلمِ و المعرفةِ، و لکن الزمانَ بتقلباته السیاسیة و الإجتماعیةِ و الفکریةِ قَد أتی علی مُعظَم هذه الکُتُبِ و لَم یبق منها اِلّا قطرةً مِن بحرٍ و غُصناً مِن أیکةٍ»(الجاحظ،۲۰۰۶: ۱۲).

و أهم تلک الکتب «البیان و التبیین» و یظهر أنّه صَنَّفَهُ فی اُخریاتِ حیاته و هو أول کتاب جامعٍ لِلأدب، و لا یکون فی المعتزلةِ أفصَح مِنه.

اتجاهه السیاسی

القرن الثانی و القرن الثالث للهجرة عصرُ ازدهار الثقافة الاسلامیة، و *الجاحظُ* مرآة زمانه. دلیلُ اعتراضه علی الشعوبیة یرجع إلی ربطه الوثیق مع الامراء و الحکماء فی العصرالعباسی. آراءهُ تأثّرَ کثیراً من اِرادَةِ الخلفاء. فمخالفته للشعوبیة - مع أنّه کان من الموالی- یرجع إلی هذا الترابط مع الخلفاء.

لیس فی الحقیقة من المقدور أن یُحصَر *الجاحظُ* فی الإتجاه السیاسی الخاصّ؛ فی المثل الشعوبیةِ اَو ضدّ الشعوبیةِ. وجهةُ نظره للشعوبیة مولود اقتضاءاته الخاصّه للاجتماع. هو لا یَطمِح إلی اکتساب القدرةِ بل هُوَ ادیب و مورّخ و عالم اجتماعیٌ و لذلک لا تُحَدَّد شخصیتهُ، کأنّه عامَلَ فی سلوکه السیاسی عملَه فی سلوکه الأدبی، وَ تابَعَ رعایةَ مقتضی الحال للمخاطبِ. إنّه نَقَلَ کُلَّ ما رأیَ و ما کانت عنده المقدمةُ المنطقیةُ للوصول إلی النتیجة. فکانَ باحثاً محقّقاً مُحایداً.

اتجاهه الکلامی

إنّ الجاحظ دَیِّن و یظهر شُعوره الدینی فی جمیع آثاره، و لکنه لیس من المتشدّدین فی أمر الدین، و کانَ معتزلیّاً یعتمد علی العقل و کان له فرقةٌ خاصّةٌ فی المعتزلة تُدعی «الجاحظیة» و خلاصة مذهبه تقوم علی هذه المواضیع: نفی الصفات عن الله، خلق

القرآنِ، المعارفُ كُلّها طِباعٌ ضَروريّةٌ، أهل النار لا يخلدون فيها عذاباً بل يصيرونَ إلى طبيعة النار، لايعدم اللهُ الأجسامَ بعدَ وجودها. و على الجملة آراء *الجاحظ* منهَجُ شكٍّ في دراسة مشكلة الحياةِ و تفسيرها، و ربّما كان واضعُ«علم الشكّ المنهجيّ» الذى نادى *ديكارت* فيها بعدَ بقرونٍ عدّةٍ.

يقول *الدكتور على بوملحم* بِشأن الجاحظِ: «إنّ الجاحظَ لَم يكتُب أدباً خالصاً أو صافياً فيما نَذَرَ. لقد كانَ رجلُ فكرٍ فى المرتبة الاولى و رجل أدبٍ فى المرتبة الثانيةِ، و لقد عَبَّرَ عن فكره بِاسلوبٍ ادبيٍّ. فَجَمَعَ بذلک بينَ الفكر و الأدبِ و لكن دارسيه المعاصرين اقتصروا على الناحيةِ الأدبية عنده و لم يفطنوا أو لَم يَهتَمّوا بالناحية الفكرّيةِ و هى الناحيةُ الاَهَمّ و الغالبةُ عليه»(الجاحظ، ۲۰۰۴: ۵).

التعريف بكتاب«البيان و التبيين»

هو كتابٌ فى الأدب مِن آخر ما أَلّفَ *الجاحظ*، يتضمّنُ مختاراتٍ من الأدبِ من آياتٍ قرآنيةٍ و حديثٍ و شعرٍ و خطبةٍ و حكمةٍ، و مَزَجَ *الجاحظ* فى كتابه علوم البلاغةِ بالأدبِ و التاريخِ. قَدّمَ *الجاحظُ* هذا الكتابَ إلى *القاضى احمد بن اَبى دُؤادَ* فَاَعطاهُ *القاضى* خمسة آلافِ دينارٍ.

و قد أجمعَ المتقدمون من أكابر العلماء و الادباء على أنَّ كتاب«البيان و التبيين»من أفضل ما وُضِعَ فى الأدبِ. قال *عبدالسلام هارون* فى تحقيق كتاب«البيان و التبيين»: «إنَّهُ ليس يُوجَدُ أديبٌ نابِهٌ فى العربية لم يسمع بهذا الكتاب أو لم يفد منه و قَلَّما نجدُ أدبياً مِن المحدثين لم يتمرس بما فيه مِن أدبٍ»(الجاحظ، ۱،۱۹۴۸ : ۱۴).

و قال *ابن رشيق القيروانى*: «و قد استفرغ *ابو عثمان الجاحظ* و هو علّامة وقته، الجَهد.و وضع كتاباً لايبلغ جودةً و فضلاً ثُمّ ما ادّعى احاطةً بهذا الفَنّ لِكثرته و أنَّ كلامَ الناسِ لا يُحيطُ به إلا الله عزوجلَّ» (قيروانى، ۱،۱۹۸۱: ۲۵۷).

أمّا *ابن خلدون المغربى* فيُبدى لنا رأىَ القدماءِ فى هذا الكتاب إذ يقول: «و سمعنا من شيوخنا فى مجالس التعليم أنَّ اصول هذا الفن و أركانه أربعةُ دواوين؛ و هى«أدب

الكاتب» *لابن قيتبة*، و كتاب«الكامل» *للمبرد*، و كتاب «البيان و التبيين» *للجاحظ*، و كتاب«النوادر» *لابي علي القالي*، و ما سوى هذه الأربعةِ فَتُتَبَّعٌ لَهُما و فرعٌ عنها»(الجاحظ،۱۹۴۸، ۱: ۶).

اسلوب كتاب «البيان و التبيين»

طريقة *الجاحظ* سهولة العبارة و جزالة اللفظِ، و تمتاز بتقطيع الجملةِ إلى فقراتٍ كثيرةٍ مُقفّاةٍ أو مُرسَلَة. و زيادة الإطناب فی الألفاظِ و الحملِ و الإستطراد و مزج الجدّ بالهزلِ لِدفع سآمة القارئِ و تحليل المعنی و استقصائه و تحكيم العقل و المنطقِ و الإعتراض بالجُمل الدعائية.

وَ اهتمَّ *الجاحظ* بإرساء دعائم النثر الفنی فی كتاب«البيان و التبيين»، و تناول معظم فنونه مِن خطابةٍ و رسائلَ و وصايا و مواعظ. كذلک كان للشعر و نقده نصيب لا ينكر ففيه تحدث *الجاحظ* عن قضية السرقات الشعرية و الطبع و الصنعة و الصدق و الكذب.

يقول *عبدالسلام هارون* حول نثر *الجاحظ* فی «البيان و التبيين»: «إنَّ دَأبَ *الجاحظ* فی تأليفه أن يرسلَ نفسَه على سجيّتها، فهوَ لا يتقيّد بنظامٍ محكم يترسمه و لا يلتزم نهجاً مسقيماً يَحذوُه، و لذلک تراه يبدأ الكلامَ فی قضيةٍ مِن القضايا ثمّ يدعُها فی أثناء ذلک ليدخل فی قضيةٍ أُخرى، ثمَّ يَعُودُ إلى ما اسلَفَ مِن قبلُ و قدكانت هذه سبيلُ كثيرٍ من علماء دهره؛ كما أنَّ علوَّ سِنّه و جِدّة التأليف فی تلک الأبحاث التی طرقَها، كُلُّ اولئک كان شفيعاً لَهُ فی هذا الإسترسالِ و الإنطلاقِ»(الجاحظ،۱۹۴۸،۱ : ۶).

على أیّ حالٍ هذه مِن أهَمّ خَصائص نثر *الجاحظ* فی كتاب«البيان و التبيين»:

۱.اِثارة الفرح فی القارئ و السامع

۲.الاستطراد

۳.الاستشهاد بالشعر الجاهلی

۴.الاستشهاد بأَشعار الخوارج و خُطبها

۵.الاستشهاد إلى آثار القصاصين

۶.الاستشهاد بآثار الزُّهاد
۷.الغُموض النثريّة
۸.فقدان النظم و عدم التسلسل المنطقی فی نثره
۹.وجود تعابیر الفارسیة فی نثره
۱۰.دراسة فی علم الحدیث و القراءَة
۱۱.الاستشهاد بالقرآن.

مضمون کتاب«البیان و التبیین»

«البیان و التبیین» ما هو إلاّ تلبیةٌ لِحاجات ذلک العصر، و تعبیر صادق عن اهتمامات أهله بفنون النثر عامّةً و بالخطابة علی وجه الخصوص، فکما اهتمَّ فلاسفة الیونان قدیماً بتعلیم أتباعهم أسالیبَ اللغةِ و طرق التلاعبِ بِألفاظها کذلک اهتمّ *الجاحظ* بتعلیم مریدیه فنَّ القولِ و الأسالیب المجادلة و طرق الإحتجاج لِیتمکّنوا من منافحة أهل الفرق الأُخری من سنّیین و شیعة و خوارج، و أهل الملل الأُخری مِن مجوس و زنادقة و شعوبیین.

فالجاحظ اذن یُعَبّرُ عن ضمیر أهل عصره و حاجاتهم بمختلف انتماءاتهم الدینیة و السیاسیة. فالخطابة فی ذلک العصر أصبحت تُنافسُ الشعرَ بل و تفوق علیه کثیرٌ مِن الأحیانِ، و قد أورد *الجاحظُ* مقولةَ *ابی‌عمرو بن العلاء* تُبَیّنُ انحدارَ مکانة الشاعر عمّا کانت علیه فی الجاهلیة، و مبررات تفوّق الخطیب و بَیِّن بلاغة الخطبةِ و بلاغة الشعر و اَیّهما افضل وکُلُّ ذلکَ اِن دَلَّ، فإنّما یَدُلُّ علی شدةِ الإهتمام بالخطبةِ فی عصر *الجاحظِ* و کیف کُتّابه ترجمان ذلک الإهتمام و اول و اضخم مُصَنفاته.

یبحث«البیان و التبیین» فی الأجناس الأدبیةِ المعروفة آنذاکَ، و یهتمّ بالکشف عن أسرار جمالها و یُبَیّنُ طرقَ تجوید الأعمال الفنیةِ الّتی یتحدّث عنها.

فی غیاب المنهج العلمی المنظم و تناثرالمعلومات و تباعدالمباحث فی الکتاب، یصعب علی الدارس اَن یَحصُرَ جمیع مباحثه و دقیقَ قضایاه و لکن یمکن القول بأنّ الکتابَ من

اکبر الموسوعات العربیة الّتی عُنیَت باللغة العربیة و آدابها. فهو مصدرمن مصادر الدرس البلاغی و الیه یرجع فی درس الفصاحة و البیان و البلاغة.

«البیان و التبیین» من مصادر الدرس اللغوی و مرجع فی دراسة تاریخ اللغة العربیةِ و تطوّر مفرداتها و فروقِ دلالاتها، و التعرّف علی لهجات القبائل و خصائصها. نجد فی هذا الکتاب ما ینطوی تحتَ علم اللغة التطبیقی و علم اللغة الاجتماعی و علم اللغة النفسی بل نجدُ فی «البیان و التبیین» اثبات التطابق الموضوعی بینَ الحقائق اللغویة المستخلصة مِن «البیانِ و التبیین» و تلک الّتی تتناولها کتبُ اللغةِ الحدیثة فی علم الاصواتِ.

«البیان و التبیین» من مصادر الدرس الأدبی إذ أنّه جامع لِکثیر من أنواع البیان و فنونه؛ من نظم و نثر، مِن اشعار و اخبار و خطب و رسائل و اَمثال و قصص و مواعظ و الکثیر من جوانب حیاة الادباء و اخبارِهم. بالاضافة إلی آنّه من المصادر الهامّةِ الّتی یعتمد علیها فی درس أدب المعتزلةِ.

الکتاب من مصادر الدرس النقدی الهامّة، حیث تناثرت فیه الآراء و النظرات النقدیة التی اَورَد *الجاحظ* فیه و عالَجَ الجاحظُ الکثیرَ منها.

و من القضایا التی اعتنی بها *الجاحظ* فی کتاب«البیان و التبیین»، قضیةُ اللفظِ و المعنی و هی من القضایا المشترکةِ بین الشعر و النثرِ و *للجاحظ* رأیٌ عامٌّ فیها، و حدّد *الجاحظ* موقفه من هذه القضیةِ حینما قال: «إنّ المعانی مطروحةٌ فی الطریق، یعرفها العجمیُّ و العربیُّ و البدویُّ و القرویّ و إنّما الشأنُ فی إقامة الوزنِ و تمیز اللفظِ و سهولته و سهولة المخرج و فی صحة الطبع و جُود السبک» (الجاحظ،۱۹۶۹، ۳: ۱۲۱) و بِتحیّز *الجاحظ* الی جانب اللفظ بدأت المناقشات فی هذه القضیة و اختلف الآراءُ فیها ما بین متحیزٌ للفظ أو للمعنی أو اتّخاذ موقف وسط. أمّا *الجاحظُ* فَبَقیَ مدافعاً عن موقفه مِن هذه القضیة.

الحدیث عن الألفاظ المفردةِ و صفاتها و عن الحروف و الأصوات، ثُمّ یتحدّث عن الاسلوب و عن وجوب التناسبِ بین اللفظ و المعنی فی السَخَف و الشرفِ. اِهتمّ *الجاحظ*

فی «البیان و التبیین» بِرَبطِ العمل الأدبی بصاحبه، کذلک یُوصی الخُطَبـاءَ بِضـرورةِ درس حالات المستمعین و تقدیر حالاتهم النفسیة و مراعاة المقام الذی یخطبُ فیه.

یُلَخِّصُ *الدکتورطه* حسین مضمونَ کتاب«البیان و التبیین» فی أربعةِ فصول قصار:

۱.الکلام علی صحة مخارج الحروف ثُمَّ علی العیوبِ الّتی سَبَبَها اللِسانُ أو الأسـنانُ، مـا قَد یُصیبُ الفَمَ مِن التشوّهِ.

۲.الکلام علی سلامة اللغةِ و الصلة بین الألفاظِ بعضها و بعـض، و العیـوب الناشـئة مِـن تنافر الحروف تنافراً یمجه السمع.

۳.الکلام علی الجملةِ و العلاقة بـینَ المعنـی و اللفـظِ، ثُـمَّ علـی الوضـوح و الایجـاز و الاطنابِ و الملاءَمَة بین الخطبةِ و السامعینَ لها، و الملاءَمَة بین الخطبةِ و موضوعها.

۴.الکلام علی هیئةِ الخطیبِ و إشاراتِه»(حسین،۱۹۸۲،۴۸۲: ۲).

و هذا أهَمُّ مباحثِ کتاب«البیان و التبیین»:

۱.البیان و البلاغة و قواعدهما

۲.الخطابة و اصولها

۳.عیوب اللسان مِن عَیٍّ و لَحنٍ و لُکنَةٍ و تَمتَمَةٍ

۴.الشعر و مقاییسه

۵.رسائل و وصایا

۶.نوادرالاعراب و اخبارهم.

النتیجة

خلق *الجاحظ* اَثراً خالداً و عظیماً المُسمّی بـ«البیان و التبیین» الّـذی هـو تحفـةٌ أدبیـةٌ بالإستعانةِ مِن الموقعِ الشخصی: الذکاء الـوافر و المثـابرة فـی العمـل، الموقـعِ الجغرافیـة: مدینة بصرة، الموقعِ التاریخی: القرنین الثانی و الثالث للهجـرة خاصـةً عصـرُ *المـأمون*. أنّ *الجاحظ* وَ إن ولد فی بیتٍ فقیرٍ بالبصرةِ قَد تَمَکَّنَ بعدَ نموّهِ و ترعرعه فی مسـقط رأسـه و لِرغبةِ الاکیدةِ فی الدراسةِ، تمکّنَ مِن إنتقاله إلی دارالخلافةِ بغـداد، فتتلمـذ هنـاک علـی

علماء کبار فی العلم و الأدبِ و خلقَ مآثرَ أدبیّة هامّةً بِمُؤازرةِ الوزراء العظامِ آنَـذاکَ(مهـری نژاد، ۱۳۹۰: ۱۳).

الجاحظ هو أدیبٌ فیلسوف، متکلّم، عـالم اجتمـاعیٌ، أحیـائیٌ، مـؤرخٌ و مؤسّـس علـم البلاغةِ. هو عبقریٌّ و أدیبٌ تامٌّ استمدَّ مِن الفکاهةِ و العمل الدّؤوبِ فی نثـره المشـوّش، و جمع الجدّ و الهزلَ دفعةً واحدةً و حصلَ علی شخصـیةٍ خالـدةٍ عالمیـةٍ بصـفة امیـر النثـر العربی. علم البلاغةِ من أهمّ مواضیع کتاب«البیان و التبیین»؛ نثره سهلٌ، شفافٌ، طبیعیٌ، بعیدٌ عن التکلّفِ، صریح، مسجّع، موزونٌ، یمتازُ بصنعة الاعتراضِ، مثل ابقـاک الله، اعـزّک الله. یمتازُ نثر الجاحظ مِن الخصائص التی لـم یسـبق قبلَـه و هـی امتـزاج الجـدّ بـالهزل، استمداده من اسلوب الخطابة و المنطق الذی یظهر بواسطة صـنعة«التکـرار» و«المـذهب الکلامی»، قَصر الفِقَر و اتّزان العبارات و یمتازُ بالموسیقا، الافتنان فی الاسلوب، الاستطراد، الاستقصاء فی البحث. هذه الخصائصُ کُلّها جَعَلَت *الجـاحظَ* کاتبـاً فریـداً وحیـداً مخترعـاً مبدعاً.

المصادر و المراجع

الجاحظ، ابو عثمان عمرو بن بحر.۱۹۴۸م. **البیان و التبیین**. شرح عبدالسلام هارون. بیروت: دارالفکر.

الجاحظ، ابو عثمان عمرو بن بحر.۱۹۹۸م. **کتاب الحیوان**. شرح محمد باسل عیون السود. بیروت: دارالکتب العلمیة.

الجاحظ، ابو عثمان عمرو بن بحر.۲۰۰۴م. **رسائل الجاحظ (الرسائل الأدبیة)**. شرح علی بومُلحم. بیروت: دارالمکتبة الهلال.

الجاحظ، ابو عثمان عمرو بن بحر.۲۰۰۶م. **المحاسن و الأضداد**. شرح صلاح‌الدین الهواری. بیروت: العصریة.

جبر، جمیل.۱۹۵۹م. **الجاحظ فی حیاته و أدبه و فکره**. بیروت: دارالکتاب اللبنانی

حسین، طه. ۱۹۸۲م. **من تاریخ الأدب العربی**. بیروت: دارالعلم للملایین.

الحموی، یاقوت.۱۹۹۹م. **معجم الادباء**. شرح عمر فاروق الطباع. بیروت: مؤسّسة المعارف.

الزیات، احمد حسن. لاتا. **تاریخ الأدب العربی**. بیروت: دارالثقافة.

الفاخوری، حنّا.۱۹۸۷م. **تاریخ الأدب العربی**. بیروت: المکتبة البولسیة.

قیروانی، ابن رشیق.۱۹۸۱م. **العمدة**. شرح محمد محی‌الدین عبدالحمید. بیروت: دارالجیل.

المقالات و الرسالات

حریرچی،فیروز . سیده رقیه مهری‌نژاد. بهار ۹۰. «**علم الدلالة للألفاظ العربیة فی البیان و التبیین عند الجاحظ**». فصلیة دراسات الأدب المعاصر. جامعة آزاد الإسلامیة جیرفت. السنة ۳. العدد۹. صص۹-۲۴.

مهری‌نژاد، سیده رقیه.۱۳۹۰هـ‌ش. «**معنی‌شناسی واژگان عربی در البیان و التبیین**». پایان‌نامه دکتری رشته ادبیات عرب. دانشکده زبان و ادبیات. دانشگاه آزاد اسلامی. واحد علوم و تحقیقات.